« قاهرة المماليك »

فيلم تسجيلى ملون فى نصف ساعة

(ناطق باللغات العربية والانجليزية والفرنسية)

اخـــــراج : عبد القادر التلمسانى
مدير التصوير : حســن التلمسانـــى
مونتـــاج : حســـن حلمـــى
سيناريـــو : مختـــار السويفـــى
تعليـــــق : صـــلاح حافـــظ
موسيقـــــى : عبد العظيم عويضة
وعلاء الدين مصطفى
مهندس الصوت : جميـل عـزيـز
انتاج سنة ١٩٨٦

الموضـوع :

فى قلب القاهرة المعاصرة قاهرة أخرى ، تنتمى إلى عصر المماليك الذى انقضى من خمسة قرون .

وهذه القاهرة المملوكية تبهر كل من يقترب منها ، إلا أهلها فهم يولدون ويعيشون ويموتون فى أحضان روائعها .

يعايشون قصورها التى لا شبيه لروعتها الفنية .. ويصلون فى مساجد لم يتكرر مثيل لها ، وتتوارث بعض أسرهم نفس الفنون ، والمهارات التى صاغت هذه القصور وتلك المساجد .

كنز فى صورة مدينة ، ومتحف لا يمكن نقله لأن روائعه ماتزال تواصل الحياة على الأرض التى أنجبتها .

obeikandl.com

وقد نال هذا الفيلم جائزة أحسن فيلم قصير فى مهرجان جمعية الفيلم السنوى الثالث عشر للسينما المصرية عام ١٩٨٧.

التعليـــق :

● لسنا فى أسواق ألف ليلة فى بغداد أو دمشق، أو استانبول، إنما فى حى واحد يضمها جميعا : قاهرة المماليك.

● الناس هنا يتنفسون التاريخ، ويعيشونه، وكل ما حولهم صفحات منه.. أحدثها كُتِبَ من خمسة قرون.

● يمر أهل الحى كل صباح بقصر الأمير المملوكى «بشتاك» ونادراً ما يلتفتون إليه، فهذا القصر يقيم بينهم منذ ستة قرون ونصف، وهم قد ألفوا مشربياته، والدانتيللا الخشبية التى تسمح بدخول الهواء، وتحجب أشعة الشمس وأنظار الفضوليين.

● وقصر الأمير بشتاك، مثل قصور المماليك جميعا: الدور الأول سلاملك للضيوف، والثانى حرملك لصاحب البيت.

لكنه يتباهى على غيره من القصور بقاعته الرئيسية، فهى أضخم قاعة مملوكية فى مصر.

لكن الحى لا يخلو من قاعات مملوكية أخرى تنافس قاعة بشتاك، وتجاورها فى نفس الحى منذ قرون.

● حتى فنادق ذلك الزمان ماتزال قائمة، ووكالة الغورى لا ينقصها غير تجار يسكنونها، ويربطون بغالهم فى صحنها، لكى تسترد شبابها الذى كان، من خمسة قرون.

● حتى بعد أن هدم الاتراك دولة المماليك فى مصر، واصل الطابع المملوكى سلطانه، وفرض ذوقه على بيوت الأتراك أنفسهم، وبنى الكريتلية بيتهم فى حى طولون على نفس الطراز، واشتراه فى العصر الحديث عاشق انجليزى، ملأه بثروة من التحف المملوكية، وأصبح اسمه الآن متحف أندرسون.

● وفرض الطابع المملوكى نفسه أيضاً على بيت الستارى بالدرب الأصفر، فالفنان المصرى الذى صاغ بيوت المماليك هو نفسه الذى صاغ بيوت السنارية.

ونفس الفنان المصرى هو الذى صاغ بيت جمال الدين أبى الذهب، فى خوش قدم، وواصل نفس الابداع ونفس الذوق، فى قاعته الرئيسية ومشربياته.

● لاتوجد مدينة فى الدنيا تذخر بالمساجد مثل القاهرة، حيث يتلاصق فى الحى الواحد مسجد بُنى أمس، ومسجد بُنى أيام الفتح الإسلامى لمصر.

● مسجد ابن طولون مثلاً : عمره الآن أكثر من أحد عشر قرناً (٨٧٩م) .
● الأزهر : عشرة قرون (٩٧٢م) .

● الحاكم بأمر الله : تسعة قرون ونصف (١٠١٢م) .
● مسجد محمد على بالقلعة : قرن ونصف (١٨٤٨م) .
● أما المساجد الحديثة : فلا يسهل عمليا حصرها .

كل مسجد من هذه المساجد ورث عن سابقيه بعض الملامح ، وشارك أكثر من عصر فى صياغة طابعه الفنى وزخارفه .

● إلا مساجد المماليك ، انفردت بطابعها المملوكى الخالص (من ١٢٥٠ حتى ١٥١٧ ميلادية) .

● قلاوون النحاسين : جامع ، وضريح ، ومدرسة ، وبيمارستان هو أول مستشفى عام يقام فى مصر .

● جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة : الجامع الرسمى الذى كان الحكام المماليك يصلون فيه آمنين ، وراء أسوار قلعة الجبل .

● جامع السلطان حسن بحى القلعة : قال عنه المؤرخ المقريزى : لم يبن فى الإسلام نظيره ، ولا حكاه معمار فى حسن عمله .

● جامع قانى باى الرماح : بحى القلعة أيضاً : أول قبة تتحلى بزخارف من التوريقات النباتية ومئذنته تنتهى ببصلتين .

● مسجد قايتباى بصحراء المماليك : أجل المساجد المملوكية ، وأشهرها على الاطلاق ، فصورته هى المطبوعة حالياً على الجنيه المصرى .

● جامع برقوق بصحراء المماليك : مؤسسة كاملة ، مسجد للصلاة ، وخلوات للصوفية وكتّابان لتحفيظ القرآن ، وسبيلان لمياه الشرب .. وضريحان للأسرة .

فى هذه المساجد يصلى أهل قاهرة المماليك خمس مرات كل يوم ، وتشرّب وجدانهم منذ الصغر طابعها المعمارى ، الذى يتطلع كل ما فيه إلى أعلى .. إلى السماء .

● حتى عرائس السطح تنظر إلى السماء ، وتصطف متساوية ، رمزاً إلى تساوى المسلمين أمام الله .

● تتطلع إلى السماء أيضا أبواب هذه المساجد ومداخلها ، أبواب شاهقة ، كالتى فى مسجد المؤيد شيخ بحى المتولى ، وسلالم تصعد إلى أعلى ، وقبة فوق الباب كأنها نافذة أخرى إلى السماء .

ويقود الباب إلى دهليز خافت الضوء، يسلكه المصلى مبتعدا عن دنس الطريق، وآثام الحياة، وقسوة الأسواق وصراع الدنيا الفانية .. إلى أن يعود الضوء يظهر، ولكن من السماء هذه المرة.

● وتتكرر الصورة، والمعنى، فى مسجد السلطان حسن بالقلعة، نفس الباب الشاهق، والقبة فى أعلاه تشير إلى السماء.

ثم نفس الدهليز، والضوء الخافت.
ثم النور النقى الصافى، ينصب على صحن المسجد من عالم آخر غير عالم السوق والصراع والأطماع.

● حتى الصحون المسقوفة، كما فى مسجد قايتباى بصحراء المماليك، فان سقفها يتوسطه شخشيخة وهى منور يتدفق منه ضوء السماء.

● لا تختلف الأذواق فى المساجد المملوكية إلا فى شىء واحد: فى الأعمدة الضخمة التى تحمل السقوف والقباب، فالمصريون المسلمون اقترضوا معظمها من المعابد المهجورة التى بناها أجدادهم المصريون القدماء، وأصبحت مساجد المماليك لهذا أشبه بمتحف للأعمدة من مختلف العصور.

● لا يكون المسجد مملوكيا حقا مالم تكن له قبة، وفلسفة القبة أيضاً هى مناجاة السماء.

تبدأ القبة مربعة، ثم مثمنة، ثم تتحول إلى دائرة. والمربع والمثمن يرمزان إلى الأرض، والدائرة ترمز لقبة السماء.

وبعد البناء تأتى الزخارف..
وهى قد بدأت بسيطة، اسطوانية، ثم تطورت فاكتست بالقيشانى الملون، ثم بأشكال هندسية، وجدائل، وأصابع، ثم تزينت بالأرابيسك والتوريق المستمد من أوراق النبات.

● يطلقون على القاهرة لقب «مدينة الألف مئذنة»، والمآذن ليست مجرد أبواق تنادى للصلاة، إنما هى رمز آخر للتطلع إلى السماء، وفرصة للمعمارى والفنان أن يرتل مشاعره، ويترجم وجدانه الدينى إلى تسابيح مجسدة.

● تنفرد مئذنة قلاوون بحى النحاسين بقيامها على مربعين متداخلين، قبل أن تستدير تمهيدا للبصلة العليا.

● وللناصر محمد بن قلاوون فى القلعة مئذنتان من طراز لم يتكرر، كل طابق فى كل منهما له زخرفة مختلفة، ومبتكرة.

● ويتمتع الجامع الأزهر بثروة من المآذن، من أجلها المئذنة التى بناها قنصوة الغورى التى تنتهى ببصلتين، وللغورى مئذنة أخرى فى مسجده بالغورية، تنتهى بخمس بصلات.

● تبدو زخارف المآذن والقباب متواضعة حقا، عندما يدخل الإنسان المسجد، وعندما يتطلع إلى المنبر والقبلة.. هنا يتحول الإبداع إلى عالم من التسابيح الروحية الخالصة.

تسابيح من الصدف والخشب، فى منبر الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة.
وتسابيح من الرخام، فى القبلة التى توجه المصلين نحو بيت الله الحرام فى مكة المكرمة.

وتتحول التسابيح إلى رؤى كالأحلام فى مسجد السلطان حسن، الذى لا نظير له بين المساجد.

● لكن أهل الحى نادرا ما يتأملون هذه الروائع، فهم عاشروها منذ الطفولة، وفى أحضانها يصلون خمس مرات كل يوم، وتسابيحهم تشغلهم عن تسابيح الفنانين الأجداد.

● لا يسمح الإسلام بتقديس الأفراد، أو دفنهم فى المساجد، لكن المماليك تحايلوا وابتكروا بابا خلفيا للخلود، ألحقوا بالمساجد مرافق لخدمة الناس، ودفنوا أنفسهم فيها.

● هكذا فعل قلاوون بمسجده فى حى النحاسين.

وأقام فوق ضريحه قبة مثقلة بالزخارف.. وجلب للضريح أعمدة هائلة من الجرانيت، نقلها من معابد الأشمونين فى صعيد مصر.

صاغ الفنانون من ضريح قلاوون متحفا يتوه فيه البصر، والوجدان.. عزفوا بأنامل عبقرية على الرخام والخشب والزجاج والصدف.. وصاغوا من الأشكال الهندسية رقصات متجددة الايقاع.. وطوعوا الخط العربى لكى يرتل أمام العيون آيات القرآن الكريم.

● لم يبدع الفنان المصرى فى صياغة قصر قلاوون، مثلما أبدع فى صياغة ضريحه، وهكذا كان يفعل أجداده الفراعنة أيضاً.. ينفقون على مساكن الآخرة أكثر مما ينفقون على مساكن الدنيا.

ولم ينس قلاوون أن يبنى فى داخل الضريح قبلة بالغة الروعة.. للصلاة..
● ولم يكن السلطان قايتباى أقل رغبة فى الخلود من السلطان قلاوون، تشهد بذلك القبة التى أقامها فوق ضريحه والسقف الموشى بروائع التراتيل الفنية.

وفى ضريح قايتباى قبلة للصلاة أيضاً.

وفى جانب منه الآن واحد من أجل كراسى المصحف المطعمة بالصدف.

● أما السلطان برقوق فلم يبن مسجدا.. وإنما بنى مؤسسة.. أقام الجامع مستقلا.. وعزله عن دنس الطريق بنفس الدرجات وبنفس الدهليز.

وبعد الدهليز يتصل الناس بنور السماء عبر الصحن المفتوح وتنادى المآذن : حى على الصلاة .

ثم ألحق السلطان بالمسجد خلوات للصوفية ، كانوا يسمونها «خانقاه» وهى غرف جرداء ، ضيقة يتعبد فيها الصوفيون .

ثم ألحق السلطان برقوق بالمسجد مدرستين لتحفيظ القرآن .

وبعد المدرستين ، ألحق السلطان بمسجده سبيلا لماء الشرب ، يستقى من البئر ويروى الناس من النافذة .

وأصبحت مؤسسة برقوق لوحة معمارية متماثلة ، ومتوازنة .
ولم يبق إلا أن يضاف إليها ضريح للأسرة ، وضريح للسلطان ..

واستغل الفنان المصرى هذا الضريح أيضاً وحوّله إلى متحف يعرض فيه روائعه ، سواء فى القبة أو الشبابيك أو السقف والجدران .

● يدين المتحف الاسلامى فى القاهرة بكثير من روائعه لقاهرة المماليك بالذات .

● فلم يكن شىء فى عصر المماليك إلا وهو تحفة : ملابسهم ، خناجرهم ، أكوابهم ، أثاث بيوتهم ، كانوا على عكس العرب ، لا يطيقون البساطة ، ولا يشبعون من الزخرفة والوشى والتمنمة .

● وثروة المتحف الإسلامى يحمل معظمها أسماء سلاطين وأثرياء من العصر المملوكى ، أما الفنانون الذين صنعوها فلم نعرف من أسمائهم غير القليل ، أحدهم : بدر بن أبى يعلا ، نقش إسمه على ثريا من النحاس ، مفتخرا بأنه تمكّن من صنعها فى أسبوعين فقط .

لا يقف أهل القاهرة مبهورين أمام هذه التحف ، لأنهم يولدون ويعيشون ويموتون فى أحضانها ، ولأنهم أيضاً يواصلون صنع المزيد منها .

● هيئة الآثار المصرية تغريهم بمواصلة تراث آبائهم ، وتدربهم فى بيت السنارى بحى السيدة زينب على نفس الفنون ، ونفس الخامات ، على الخشب والنحاس والصدف والجبس .. وكل مادة طوعها آباؤهم وعبرّوا بها عن وجدانهم ، وبهروا بها العالم .

● وفى القاهرة ما تزال تواصل الإبداع أسر توراثت فنون الاجداد الذين خلدوا بمصر قايتباى وقلاوون وقانصوه الغورى ، ومنها أسرة أبو زيد بحى السكرية ، التى تعلم أولادها أولا بأول كيف يعمرون بتسابيح الفن بيوت الله ، وبيوت الناس .

● وفى حى القلعة ، يتوارث أولاد حسين فى العزف على الرخام .

• لكن الجيل الجديد لا يكرر ما صاغ أجداده.. لأن الأجداد أنفسهم لم يكرروا شيئاً صاغوه... الطابع الفنى واحد، ولكن.. ما من مسجد فى قاهرة المماليك، أو مئذنة، أو باب، أو مقعد، يتكرر مرتين.. تماما كبصمات الأصابع، تبدو متشابهة، ولكنها أبدا لا تتكرر..!

• • •

التصوير داخل الجوامع المملوكية

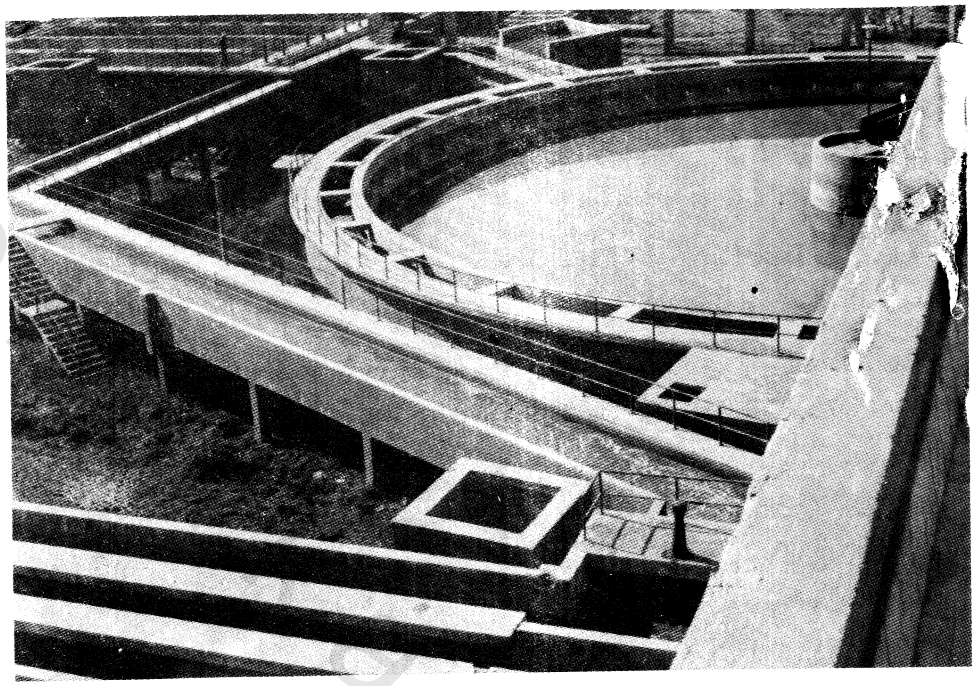

مشروعات المياه والصرف الصحى ــ من فيلم العمل شرف